التقابل المصطلحي في القرآن الكريم

Terminological contrast in the Holy Quran

مفيد فريد محيي الدين
د. نشأت علي محمود
أستاذ
جامعة صلاح الدين– كلية اللغات –
قسم اللغة العربية

Mufeed fareed mohialdin
Dr. Nashat ali Mahmood
professor
Salahaddin University-College of languages - department of Arabic language

Mufeed_ouzai@yahoo.com
drnashat2006@gmail.com

تاريخ الاستلام تاريخ القبول
٢٠٢٣/٤/١١ ٢٠٢٣/٥/١٠

الكلمات المفتاحية: علم المصطلح، المصطلح القرآني، الدلالة، التقابل والمقابلة، التراكيب

Keywords: Termology, Quranic terminology, semantics, contrast and contrasting, structures

الملخص

يتميز القرآن الكريم بمصطلحات نُحِتَتْ حسب عادة العرب في الاشتقاق، وإضافةً إلى ذلك دلّت على مفاهيم جديدة على الفكر العربي، واستعملت هذه المصطلحات ضمن تراكيب بلاغية مميّزة في الأسلوب، متناغمة مع المفهوم المراد إبلاغه بوضوح وجلاء، ضمن علاقات دلالية محددة، وأحد الأساليب التي تمّ تطبيقها في بيان المراد من المصطلح هو التقابل بين المتضادين أو بين المختلفين أو بين المتكاملين، واستعمل في هذا التقابل تارةً التعبير الحقيقي وتارةً أخرى التعبير المجازي، وتعمّق التقابل إلى التقابل بين لوازم المصطلحات المستعملة أو أسبابها أو نتائجها وغيرها، بما يحفظ وسيلة الإبلاغ رونقها وسلامتها في الوصول إلى ذهن المخاطَب؛ لبناء خطابٍ قرآني رصين.

Abstract

The Holy Qur'an is characterized by terms that were carved according to the custom of the Arabs in derivation, but they indicated new concepts to Arab thoughts. What is meant by the term is the opposition between the opposites, or between the difference, or between the complementary ones, and in this opposition used sometimes the real expression and at other times the figurative expression, and the contrast deepened into the opposition between the requirements of the terms used, their causes, results, etc., in a way that preserves the means of communications its splendor and safety in reaching the mind addressee to build a solid Quranic discourse.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين صلوات الله وسلامه عليه، أما بعد:

فممّا لا شكّ فيه أن القرآن الكريم حوى جواهر البلاغة العربية بل أنفَسَها على الإطلاق، وتؤكد الدراسات القرآنية المتعدّدة والمتنوعة هذه الحقيقة، ومن الظّواهر البلاغية القرآنية التقابل اللغوي الذي هو عنصر من عناصر البيان وتوضيح المبهم، وقيل قديماً (يعرف الشيء بضدِّه)، ووضع المصطلح القرآني ليس غريباً عن استعمالات التقابل، بل كان التقابل المصطلحي أحد أعمدة بناء النص القرآني حين تقابل (الإيمان) و(الكفر)، وتقابل (الهدى) و(الضلال)، وتقابل (النفع) و(الضرّ)، وهكذا كان تآزر النص القرآني يستند على هذه الأساليب البلاغية الدلالية والمفهومية في إخراج الكلام على نمط إبلاغي يحدّد فيه الخطاب في أعلى مستوى الإدراك والفهم والحسّ، وهذا كان سبب اختيار هذا الموضوع للدراسة والبحث.

والجهود في مجال البيان المصطلحي للكلمات الإسلامية كبيرة وكثيرة، وتظهر هذه الجهود في كتب معاني القرآن وكتب الوجوه والنظائر، وكتب التفسير التي اهتمَّت بالبحث اللّغوي و البلاغي.

ولا أنسى هنا أن أؤكد أن بعض الدراسات والمؤلفات أعطت حيّزاً مركزياً لمسألة المصطلح القرآني، ولاسيما في المجال التقابلي، فكان (التفسير الكبير) للرازي، و(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي، و(التحرير والتنوير) لابن عاشور، أثرٌ في تتبُّع مجالات النشاط المصطلحي في القرآن الكريم، وخاصّة مجال التقابل، فافدتُ من هذه الكتب أيّما إفادة.

وقد تكوّن البحث من مدخل ومحورين، عرفت في المدخل بمفهوم التقابل المصطلحي من ضمن مجموعة من العلاقات الدلالية كالتناسب والتناظر وغيرهما، وفي المحور الأول تطرقت إلى نماذج من التقابل المصطلحي، وأخذت مصطلحي (الإيمان) و(الكفر)، ومصطلح (الهدى)، ثم عرّجت بعد ذلك على التقابل المصطلحي بين لوازم المصطلحات. وفي المحور الثاني تطرقتُ إلى التقابل التركيبي للمصطلح القرآني لنماذج تركيبية قرآنية مع تحليلها بما يتناسب مع سياق البحث ومقاصدِه ، ثم بحثت التقابل المصطلحي بين الحقيقة والمجاز ودوره في البناء المفهومي للخطاب القرآني.

وفي الخاتمة أدرجتُ مجموعة من النتائج التي توصّلتُ إليها، مبيّنًا أهميَّة فهم المصطلح القرآني في بيانِ النصِّ ووضوحِه ومعرفة مقاصدِه، ومن هذه النتائج بيان مظاهر استعمال المصطلح في القرآن الكريم من خلال صيغ مفهومية ترتقي بالمفهوم إلى مستوى الإدراك والمسؤولية للخطاب المصوغ في قالب إبلاغي مهيّأ للفهم والتواصل المعرفي.

وأرجو أني قد وُفّقتُ في هذا البحث إلى إبراز حقيقة قرآنية مؤصّلة في الخطاب القرآني، فما كان منه من صوابٍ فهو من توفيق الله سبحانه، وما كان فيه من زلل أو خطأ أو غلط غير مقصود فهو منّي، فالله أرجو الغفران، والتوفيق والسداد.

مدخل إلى مفهوم التقابل المصطلحي في القرآن الكريم

لابدّ لنا من الإشارة إلى أن التفاعل الدلالي بين المصطلحات، والنشاط المفهومي يتم عبر مجموعة من العلاقات الدلالية؛ لإنتاج مفهومٍ محدّد يستقل به المصطلح القرآنية ضمن سياقه في الآية المطلوب الإبلاغ عن مفهومها عن طريق نحت المصطلح هذا على المنوال الذي تستوجبه الإرادة الإلهية في البيان؛ لأنّ القرآن الكريم له علوّ، ولا يُعلى عليه؛ لأنه كلام الله المنزل، ولذلك فلغته كذلك لا يُعلى عليها؛ لأنها صنع الله الذي أتقن كل شيء في خلقه، والشيء الذي يختلف فيه الوحي عن الخلق هنا، هو أن الله سبحانه أجرى في الخلق سنة النقص في القليل منه للعظة والعبرة، فخلق الأعمى والأخرس وغيرهما تبياناً لقدرته على خلقه وأنه على كلّ شيءٍ قديرٍ، لكن هذا لم يحدث في الوحي؛ لأنه كلام الله الذي هو صفةٌ من صفاته فله الكمال المطلق، فلا يمكن أن يتخلّله عيبٌ أو نقص، وإلا كان هذا العيب حجةً على الوحي.

فلا بد للمصطلح القرآني من دور محوريّ لإنتاج مفهومٍ يقصده الوحي، لكن بأدواتٍ معروفة، أي بناءُ مجهولٍ غير معروفٍ سابقاً على معلوم معروف مستعمل، ليظهر ذلك المجهول على حقيقته عندما يبلّغ بالكيفية التي أراده الله سبحانه من خلال ذلك التفاعل الدلالي الذي يحصل في النظم، بما يشبه التفاعل الكيميائي الذي ينتج مادة جديدة لم تكن معروفة من قبل، وبخصائص جديدة أيضاً، تتجاوز الجمالية والذوقية الأدبية إلى مجالات فسيحة من البيان والدقة في التّعبير في مراعاة الحال والمقام؛ ليشارك في ذلك علوماً نفسيّة واجتماعية وصيغاً تاريخية وغيرها من المعطيات المفهومية؛ للتوصل إلى إبلاغٍ حقيقي لمراد الوحي.

وعلى اختلاف الاصطلاحات الدلالية في نعت الظاهرة المفهومية، فإننا مسؤولون تجاه توصيف الظاهرة الدلالية مسؤولية المخاطَب والمتلقي في حق الفهم، أي إنّ المتلقّي لبيان الله سبحانه مسؤول عمّا أُبلغ أن يفهمه فهماً يتوافق مع مقصود النص ومراد المرسِل بحيث يرتقي إلى المستوى المطلوب من الإبلاغ وتوظيفه في الفكر والحركة في الحياة.

ويستقبلنا ضمن هذا الإطار مجموعة من العلاقات الدلالية هي آليات في طريق البيان والإبلاغ، أهمها:

١- التماثل: وهو الترادف الكامل، وهذا فيه خلافٌ شديدٌ بين أنصار الترادف وبين من يعارض وجود الترادف وخاصةً في القرآن الكريم [١]، فإنّ أبواب الترادف تكاد تكون مقفلة أمام المفهوم القرآني؛ لأنّ المصطلح القرآنيّ مرتبطٌ مفهومياً مع مصطلحات أُخرى وفي سياقاتٍ

(١) عمر، د. أحمد مختار: علم الدلالة. عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨. الصفحة ٢٢٣.

معيّنة ومقامات ملحوظة، تجعل من مفهومه تركيباً يختلف عن المصطلح المماثل له في اللفظ، لكن دون ضمائمه التي توجّه دلالته نحو مفهومٍ ليس هو كما في الآية الأخرى. فنحن هنا لسنا معنيّين بهذا النوع من التقابل المعنوي الذي أساسه التشابه في المفهوم الكليّ.

٢- التناسب: وهو ارتباط بين سورتين أو آيتين في وجهٍ من الوجوه، ولا شكّ أن هذا التناسب ينسحب على المصطلح القرآني أيضاً، الذي يتعامل مع المفهوم المبني على أساس الإبلاغ الواضح والبيّن، وسُمِّيَ بعلم مناسبات القرآن الذي جاء في تعريفه: " علمٌ تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود المطلوب ذلك فيه. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو"(١) وفائدة هذا العلم هي الترابط الحاصل بين أجزاء الكلام، إذ يكون كالبناء المحكم الذي تتلائم أجزاؤه، بتلائم اللفظ مع المعنى؛ لتكوين مفهومٍ يستغرقه المصطلح في الإبلاغ الموضوعيّ والسياقيّ في صيغة لطيفة ولكنّها متينة السبك، آخذة باللباب في صراطٍ مستقيم (٢). وقد يسمّى تناسقاً للسبب نفسه، وهو التناسب والتناسق الحاصل بين سور القرآن وآياته وكذلك التناسق الحاصل في نحت مصطلحاته.

٣- التناظر: وهو قريب الشبه بمصطلح التماثل، إلا أنّ التّناظر أدقّ وصفاً لحالة النظير المكافئ، ولا يشترط التشابه والتماثل، وتستند فكرته على المثاني أو التثنية التقابلية بين مفهومين اعتماداً على قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] (٣) كالحاصل بين جزئي سورة الفاتحة الوارد تفصيله في الحديث النبوي: عَنْ أبي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " قال الله تعالى: قسمت الصلاة بين وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ. وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا

(١) البقاعي، الإمام المفسّر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.س. ٦/١.

(٢) الزركشي، الإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن. دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، الصفحة ٤١. وانظر: مسلم، أ.د. مصطفى: مباحث في التفسير الموضوعي. دار القلم، دمشق-سوريا، الطبعة الثامنة، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م. الصفحة ٥٨.

(٣) الرواجفة، أيمن عيد وسليمان الدقور: التناظر في القرآن الكريم/ تأصيل وتطبيق. مجلة إسلامية المعرفة، السنة الرابعة والعشرون، العدد ٩٦، ربيع ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م. الصفحة ٢٣.

قَالَ؛ الرحمن الرحيم. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى؛ أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قال مالك يوم الدين. قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي (وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي) فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضالين. قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ." رواه مسلم [١] وبذلك يكون التناظر هو التكافؤ الحاصل بين مفهومين في سياقٍ إبلاغي، وعلى هذا الأساس يكون التناظر المصطلحي أيضاً، فلا يكتفي التناظر بالآيات والمقاطع الموضوعية، فللمفردات نصيبٌ من هذا النوع التناظري[٢]؛ ليكون وسيلةً أُخرى في البيان والإبلاغ.

٤- التقابل: وهذا المصطلح يتيح لنا أن نستعمله ضمن مفاهيم التناغم والتناسق والتشابه والتماثل والتناسب والتضاد والتكافؤ والتخالف؛ لأنّ كُلّاً منها يُفيد التقابل الدلالي على أُسسٍ خاصةٍ بها، فالتساوق الدلالي لا بدّ له من تقابل لإنشاء التماثل أو التشابه أو التناسق كالسيئة والإثم والذنب، وكالبر والإحسان، ودلالة النديّة تقتضي التقابل بين متضادين في التضاد كالهدى والضلال والكفر والإيمان، ودلالة التكامل تتسحب على التقابل بين متكافئين لينتج التكافؤ [٣]، كالإيمان والإيقان، والكفر والفسوق والعصيان وهكذا.

فالتقابل له خاصّية التعامل الدلالي المحفّز للفكر والخيال للتجاوب مع المفهوم المقصود؛ ليصل إلى حدّ الاكتفاء الإبلاغي الذي يعني الإدراك والفهم ومن ثم الاستجابة. ولا بدّ أن ندرك أن المصطلح القرآني له قوة مفهومية تثير الفِكَر وتهيّج الخيال من خلال استعماله في دائرة التقابل الدلالي في القرآن الكريم، والاستجابة لما بين الأمرين، إما رفضٌ أو موافقة. والعمل جارٍ بين الوجه الجمالي للتقابل والوجه الدلالي للوصول إلى المفهوم ليكون مصطلحاً عليه ضمن كتاب الله سبحانه المبين بياناً مبلغاً إبلاغاً ينتفي فيه التردد والضبابية والإدراك الخاطئ للأشياء.

وليس للتقابل أُحادية في الاستعمال، بل يستنفر التقابل عدّة إشارات دلاليّة لتحوّلها إلى وسائل للوصول إلى مفهومٍ قد اصطُلِحَ عليه ضمن حبكة جمالية ودلالية في الوقت نفسه، ولذلك كانت المقابلة هي إحدى ركائز التقابل الدلالي، وليس كلّها، فمن التقابل أيضاً المطابقة

---

(١) القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى الباب الحلبي، القاهرة، د.ط، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م. ٢٩٦/١.

(٢) هني، أ.د. سنية: تناظر المشتقات في القرآن الكريم. مجلة المناهل، المجلد ٣، العدد ١، سنة ٢٠٢٢، الصفحة ٨٦.

(٣) القرعان، الدكتور فايز عارف: التقابل والتماثل في القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م. الصفحة ١٠ وما بعدها.

أو الطباق الذي يعتمد على التضاد أساساً في بناء المفهوم[١]، لكن المقابلة أشمل من ذلك؛ لأنها لا تقوم على التضادّ فحسب، كما يذهب إليه بعض العلماء[٢]، بل يعتمد على التّضاد وغيره، وأوضح ما قيل في ذلك أن المقابلة هي "مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم" وتنتظم في أنواع كثيرة " وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب؛ فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخره"[٣]، فما يستحقه في الحكم هو الذي ينتج عنه إبلاغٌ حقيقي لمفهومٍ مُراد، بحيث يوافق حالة الخطاب واحتياج المفهوم بما يضاده أو يوافقه أو يلازمه أو يشترطه أو يناسبه أو يظهره وهكذا[٤]، وبذلك تكون المقابلة فيما أُدرج المفهومان على شكل مصطلحين متقابلين على أساس التضاد أو التوافق، أو على أُسسٍ دلالية يقتضيها المعنى من التركيب في عموم المفهوم. إذ تتفاعل الوظيفة الإبلاغية مع الوظيفة التعبيرية للتوصّل إلى مغزىً أراده المتكلم.

فالتقابل المصطلحي يحمل هذه المقاصد الدلالية، وهذه تولد حمولة مفهومية إدراكية تفسيرية للنص القرآني، ليكون دور المصطلح القرآني دوراً بنائياً لتوليد المفاهيم المركبة جرّاء التقابل الحاصل بين النظير والنظير أو النقيض مع النقيض، والخلاف مع خلافه حسب المقام والمراد[٥].

---

(١) العسكري، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: كتاب الصناعتين. علّق عليه: د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م. الصفحة ٢٤١.

(٢) السكاكي، أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي (ت٦٢٦): مفتاح العلوم. تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م. الصفحة ٥٣٣.

(٣) القيرواني، أبي علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الطلائع، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٩م، ١٣/١.

(٤) ابن قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧): نقد الشعر. مطبعة الجوائب، قسطنطنية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ. الصفحة ٤٧. وانظر: الحاتمي، أبي علي محمد بن الحسن بن المظفر (ت٣٨٨): حلية المحاضرة. دار الرشيد للنشر، من مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة كتب التراث (٨٢)، بغداد، د.ط. ١٩٧٩م. الصفحة ١٥٢.

(٥) الزركشي، الإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر: البرهان في علوم القرآن. الصفحة ٧٠٦.

نماذج من التقابل المصطلحي في القرآن الكريم

المحور الأول: التقابل المصطلحي بين (الإيمان) و(الكفر)

لا شكّ أن مصطلحي الإيمان والكفر يتضادّان في الدلالة والمفهوم، وهما أساسا التباين المفهومي بين طرفي الصراع، فمن حيث إطلاق اللفظ فإن القرآن وازن بين مصطلحي (الكفر) و(الإيمان) في صعيدٍ واحد بالإطلاق دون تقييد، كما أسلفنا الذكر في ذلك في الفصل الأول/ المبحث الثاني/ المطلب الأول، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة:١٠٨] وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن:٢]، فالآيتان نموذجان للاستعمال المطلق لمصطلحي الكفر والإيمان المتقابلين، للدلالة على الانفكاك بينهما في المفهوم، وقد ذكرنا سابقاً أن الإطلاق كان موجهاً بدلالة المفهوم المقصود لا بدلالة التقييد حين استعمل الصيغ الصرفية ذي الدلالة المحددة للتعبير عن مفهوم محدد، لكن النشاط المصطلحي في القرآن الكريم لم يكتفِ بهذه الإجراءات الدلالية المولِّدة للمفهوم، بل استعمل القرآن الكريم نشاطاً من نوعٍ آخر وهو التقابل المصطلحي بين المصطلح المركز وبين ما يخالفه لا في المخالف نفسه بل فيما هو سبب له أو شرط فيه أو لازم منه، فيُستبان المصطلح الأصلي بذلك ويستغرق فيه المفهوم أيضاً مع المصطلح الدالّ على أحد لوازمه أو أسبابه أو نتائجه مقابل المصطلح الآخر، لينطلق من هذا التوجيه الدلالي لوازم وتوابع متفرعة من مفهومي الإيمان والكفر، كما مبين في الجدول أدناه:

لوازم وتوابع الإيمان	لوازم وتوابع الكفر
الهدى	الضلال/ العمى
الخير	الشر
اليقين	الظن/ الشك
الصراط	اتباع السبل
التقوى	الفسق/ الفساد
العلم	الجهل
الحق	الهوى
العبادة	الاستكبار
التوحيد	الإشراك
الحسنة/ البرّ	السيئة/الذنب/ الإثم
العدل/ القسط	الظلم/ الطغيان/ الجحود
الرضا/ الفوز	العذاب/ الخزي/ الخسران

فنشأ جرّاء ذلك تقابل المصطلح المركز مع لازم ضده أو سببه أو نتيجته أو نوعٌ من أنواعه أو مظهر من مظاهره وهكذا، منها تقابل (الإيمان) بلازمٍ من لوازم الكفر (الاستكبار) في قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة:١٥] فالاستكبار صفة من صفات الكفّار؛ لأنهم استكبروا على السجود لله الذي خلقهم[١]. ومقابلة (الإيمان) بالفسوق كأحد نتائج ولوازم الكفر في قوله تعالى:﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١] إذ إنكار نسبة الفسوق إلى الإيمان[٢] وكذا في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة:١٨] فالتقابل هنا على أشدّه وتصريحٌ بعدم السواء يغني عن التأويل، وهو أسلوب في الإقناع بصيغة السؤال لتأكيد الفرق وعدم التسوية بينهما[٣]، وفي تقابل تركيبي ثريّ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١] جاءت الآية غنيّة بالمتقابلات، فمن جهة أوردت (ملائكة – الاستيقان – الذين آمنوا – إيماناً – المؤمنون – يهدي) في مقابلة (أصحاب النار – فتنة – كفروا – الارتياب – يضلّ)، فالتقابل بين الإيمان والضلال واضحٌ فيها[٤]، ثم التقابل الحاصل بين الإيمان والجحود كأحد مظاهر الكفر في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

(١) البلخي، الإمام أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي (ت١٥٠هـ): تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق: أحمد فريد. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ. ٢٩/٣.

(٢) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي). ١٣٦/٥

(٣) الشعراوي، الشيخ محمد متولي: تفسير الشعراوي/ الخواطر. مطابع أخبار اليوم، القاهرة، د.ط، ١٩٩٧. ١١٨٤٢/١٩

(٤) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي. بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. ٦٥٤/٤.

ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧]

وقد خُصّ الجحود بالكافر؛ لأن غير الكافر لا يجرؤ على ذلك، إذ يمنعه إيمانه ويقينه ووجدانه الذي بُني على الإيمان الصادق أن يكذّب بما جاء ناهيك عن جحوده[١]، وقابل الإيمان بالإشراك؛ لتلبّسه به في نوعٍ خفيّ كما قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٨-٥٩] إنّه وصفٌ للشرك الخفي، وإلا فإن نفي الشرك الأكبر داخل في قوله (وهم بآيات ربهم يؤمنون)[٢]، وقد جاء الظلم مقابل الإيمان باعتباره أحد لوازم الكفر في قوله تعالى:﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾[الكهف:٨٧-٨٨] فقابل الظلم بالإيمان، الظلم الذي هو الكفر؛ الذي هو الخسران المبين كما جاء بهذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] فالظلم هنا هو الكفر الذي يخسر الإنسان نفسه به يوم القيامة[٣]، فبذلك قد يتقابل الإيمان بلازم من لوازم الكفر أو مظهر من مظاهره كما مبين في هذا المخطط في نماذج من المتقابلات مع مصطلح (الإيمان) وحسب الآيات السابقة الذكر:

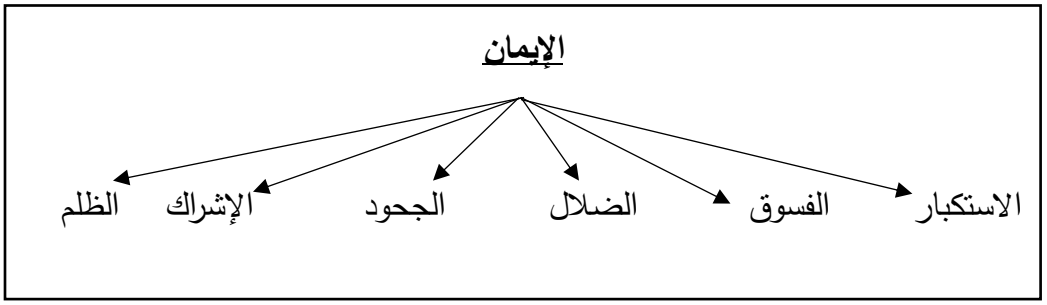

(١) الشعراوي، الشيخ محمد متولي: تفسير الشعراوي/ الخواطر. ١١٢١٧/١٨

(٢) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي: مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير. دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠م. ٢٨٣/٢٣.

(٣) القلموني الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين (ت١٣٥٤هـ): تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٩٩٠م. ٢٨٤/٨.

وبمثال ما سبق يتقابل مصطلح (الكفر) مع لوازم الإيمان أو مع مظهر من مظاهره، إنْ قُصِد منه مفهومٌ يخدم الفكرة التي يراد إبلاغها عن طريق الاصطلاح والتقابل معاً، منها مقابلة الكفر بالهدى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:٣٢] فالهدى هو سبب وجود الإيمان الذي يحمل البيان، وقوبِل به الكفر في هذه الآية لمن لم يهتدِ بالبيان الذي أُرسِل إليهم(١)، ومقابلة الكفر بالشكر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم:٧]. ومقابلة الكفر بالعقل كما في قوله تعالى:﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] فبدل أن يقول (لا يؤمنون) قال (لا يعقلون)؛ لأنّ النتيجة هي أنهم بعد صممهم وبكمهم وعميهم أي امتناعهم عن الحق بتوقيف العقل عن عمله في الإدراك والفهم، كان الكفر من نصيبهم؛ فلذلك جاء التمثيل بياناً لذلك(٢). ومقابلة الكفر بالفقه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال:٦٥] إنها معادلة ربّانية عندما يتعلّق الأمر بالمواجهة الأزلية والصراع الدائم بين الإيمان والكفر، لكن الكافرين لا يريدون فهم هذه المعادلة؛ لأنّ فهمها يؤدي إلى الإيمان؛ فالإيمان إدراك وفهمٌ بعد البيان والإبلاغ(٣). وفي مقابلة الكفر بالحق يقول سبحانه:﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾ [الزخرف:٢٩-٣٠] فالحق هنا جامعٌ لكل تفصيلات الإيمان ومقتضياته؛ لأنّه حقّ من الله سبحانه كله، ويصدقه قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد:١] ويدل على الجمع هذا (ال) التي للجنس؛ ليشمل جنس ما هو إيماني وهو

(١) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. دار ابن حزم ودار سحنون، بيروت–تونس، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م. ٣٩٦/١٠.

(٢) المصدر نفسه، ٧٩٩/١.

(٣) القلموني الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين (ت١٣٥٤هـ): تفسير المنار. ٦٦/١٠.

داخلٌ في مقتضياته، وإردافه بالرسول المبين توثيقٌ لهذا الإيمان بما بيّنه من الآيات والأحكام[1]، ويكون بذلك التقابل الحاصل بين الكفر الذي هو غير الحق والإيمان الذي هو الحق المبين مفهومات قرآنيين في قالب مصطلحين جديدين في التداول على هذا النمط.

وفي المخطط أدناه مصطلح (الكفر) في نماذج بما يقابله من لوازم مصطلح الإيمان:

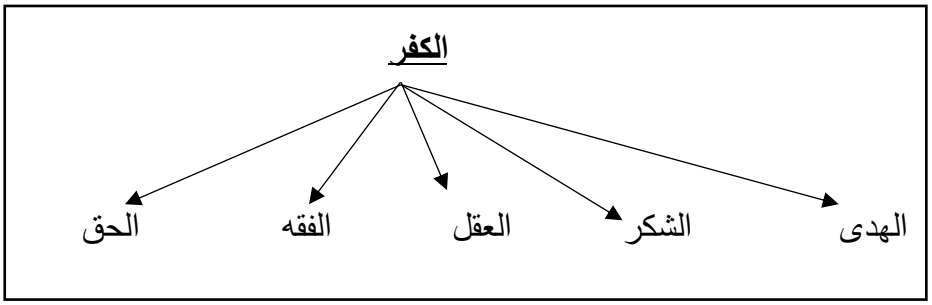

فما أدرجناه هنا هي نماذج للمصطلحات التي تنتمي إلى الحقل الدلالي لمصطلح المركز، استبدلت لغاية إبلاغية وسيلتها التقابل.

التقابل في مصطلح (الإيمان):

لا شكّ أن مصطلح (الإيمان) يتقابل مع مصطلح (الكفر) في الأساس المفهومي، ولكن ليس شرطاً أن يأتي الاستعمال القرآني في حدود التقابل اللفظي المحدود بين المصطلحين، فقد يتقابل مصطلح الإيمان مع لوازم الكفر أو توابعه أو نتائجه أو غيرها؛ وذلك أن الله سبحانه حين خاطب عباده خاطبهم بلسانٍ منظَّم مرتَّبٍ يتناسب مع مقامهم ومقام الموضوع المطروق في الكلام، ولبيان الإيمان يأتي بما يقابله في الكفر كسبب أو نتيجة أو لازمٍ من لوازم فقدان الإيمان من باب معرفة الشيء بضده؛ لتستبين سبيل الكافرين عن سبيل المؤمنين.

ومثاله التقابل الحاصل بين الإيمان ولوازم الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠] فقابل هنا بين مصطلحي (المؤمنون) و(الفاسقون)، وليس (المؤمنون) و(الكافرون)؛ لأنّ الفسق أحد عوائق الإيمان، فيذوب الإيمان بتعرّضه للفسق، هذا إضافةً إلى أنّ الكفّار فيما يدينون منهم من يكون عدلاً في دينه ومنهم من يفسق عنه، فالثاني أشدّ كفراً؛ لأنّه لا رَضِيَ

(١) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي: مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير. ٦٢٩/٢٧.

بالإسلام ولا رَضِيَ بما عنده[١]، فقوبِل المؤمن الرضيّ بالكافر الفاسق غير المرضي. فاستدعى ذلك تناول مصطلح (الإيمان) بلازمٍ من لوازم الكفر تبياناً وتمييزاً للحق المبين عن الباطل الممحوق.

وقد تكون المقابلة عكسية حين يقابل أحد لوازم الكفر ونتائجه بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف:٨٧-٨٨] فقوبِلَ الظلم بالإيمان، والظلم من مخرِّجات الكفر والشرك بالله، كما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] فلمّا كان الإيمان مقابلاً الكفر، دلّ على أنّ مقابلة الظلم بما تلبسه من الكفر بالإيمان والعمل به؛ ولأنّ الظلم أحد لوازم الكفر كما جاء في آية سورة لقمان، فاقتضى البيان الإتيان بلازمه؛ لأنّ المقام يبيّن أنّ الكفر من باب الظلم الذي يلحق بالإنسان نفسه قبل أي شخصٍ آخر، فإضافةً إلى بيان معنى الكفر من خلال مفهوم المخالفة مع صريح مصطلح الإيمان، فقد جاء التصريح بمصطلح (الظلم) ليكون البيان لمصطلحين في سياقٍ واحدٍ. فما فُهم من معنى (الظلم) لفظاً فُهِم منه (الكفر) معنىً؛ لأنه أحد نتائجه، وهذا لم يتم إلا بعد مقابلة الظلم بالإيمان. ولكن هذا لا يعني أنّه كلّما ورد مصطلح (الظلم) في القرآن يكون بمعنى الكفر، بل إنّ (الظلم) إذا قوبِل بالإيمان فهو يعني الكفر المتلبِّس بالظلم.

وفي ظاهرةٍ أُخرى في التقابل المصطلحي، هي مقابلة المصطلح بأدواته أو وسائله، ومن ثمَّ حذف المصطلح الأساس، واستعمال المصطلح اللازم له بدلاً منه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة:٥٨] فالتعقُّل لازم الإيمان وأداته، فبإعمال العقل يحصل الإيمان، وبدون العقل لا تكليف على الإنسان، فكأنّه قال (ذلك بأنهم قوم لا يؤمنون)، مقابلةً لاستهزائهم الذي هو مظهر من مظاهر كفرهم[٢].

---

(١) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي: مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير. ٣٢٧/٨.

(٢) المراغي، أحمد بن مصطفى: تفسير المراغي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م. ١٤٦/٦

وقد ورد في القرآن الكريم مقابلة العقل بالكفر أيضاً دون حذف المصطلح الأساس (الإيمان)، كما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٠٠] فقوله (لا يعقلون) يعني لا يؤمنون، بدليل مقابلته بالإيمان في الآية نفسها، فقد عبّر بـ(لا يعقلون)؛ لأنهم لم يعملوا بما تمليه عليهم عقولهم من الإيمان بالله ورسله، إذ بيّن أن سبب الكفر فيهم هو عدم استعمال عقولهم فيما كان يجب أن يوظفوها في الإيمان بالله ورسله ومقتضياته، وكونه صلة الموصول فيه وجه لبناء الخبر على التعريض بالتحقير واستصغار أمرهم ذلك بأنهم لا يُعملون عقولهم فيما يجب أن يُعمل(١).

التقابل في مصطلح (الكفر):

فالكفر يتقابل مع الإيمان في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، لكنه قد يعدل إلى مقابلة الكفر بأحد لوازم الإيمان، أو أسباب وجوده أو نتائجه أو مظهرٍ من مظاهره، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٤٠] فالشكر يعني أصلاً الثناء على المعروف والرضا به(٢)، والتغاضي عنه لؤمٌ فما بالك بإنكاره؟ فقابل الشكر بالكفر؛ لأنّ عدم شكر المُنعِم إنكارٌ للمعروف، وإنكاره بحق الله سبحانه كفر لنعمته وعدم إيمانٍ به؛ لقوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣] فأساس مفهوم المصطلح (شكر) في الآية الأولى ينتمي إلى بناء هذا المفهوم في الآية الثانية، فمقابلة الكفر بالشكر جاء بعد تنظير مفهوم الشكر بأنه الاعتراف بالمعروف، فالكفر هنا إنكار المعروف كما هو متعارفٌ عليه((٣))، لكنّه بحق الخالق المعبود سبحانه كفرٌ، كما قوبل الشكر بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] فشكر الله سبحانه ليس نافلة من النوافل قد يستغنى عنه في لحظة من اللحظات، بل هو بمفهوم الآيات تكليفٌ لابدّ منه ليدرك المؤمن درجة الإيمان الصحيح؛ لأنّ الآية الأخيرة جعلت عدم الشكر –بمعنى الإنكار وليس الترك– كفراً جزاؤه العذاب الشديد، وهذا لا يكون إلا فيما هو فرض على النفس. وبذلك يكون هناك فرقٌ بين من لم يشكر غافلاً عن

(١) السكاكي، أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي (ت٦٢٦): مفتاح العلوم. الصفحة ٢٧٤.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. الصفحة ٥١٢.

(٣) الشعراوي، الشيخ محمد متولي: تفسير الشعراوي/ الخواطر. ١٠٧٨٧/١٧.

الله سبحانه وبين من لم يشكر منكراً لفضل الله سبحانه. وجزاء من أنكر معروف ربه ونسبه إلى غيره وخاصةً إلى نفسه تكبّراً جزاءٌ شديد، كما حصل لقارون إلا أن لا خسف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٨] فنسب نعمة الله عليه لنفسه لا لربه المنعم فكان جزاؤه: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١] فالمفاهيم القرآنية في الشكر والكفر تتكامل حين يوضع المفهوم المصطلح عليها في القرآني في سياقه الموضوعي؛ لينجلي المفهوم العام ويُدرك الإبلاغ بأفصح صوره.

ومن التقابل، مقابلة الكفر بالتوبة كأحد لوازم الإيمان عند الرجوع إلى الله سبحانه بمعنى الرجوع عن الذنب ندماً[١]، فلا إيمان للكافر إلا بالتوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التوبة: ١٢٥-١٢٦] فالتوبة تقابل الكفر، كإحدى مقتضيات الإيمان بعد الكفر؛ وحينئذٍ تكون التوبة متلبسةً بالإيمان، فيصحّ تسمية الإيمان توبةً؛ لملابستها له[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] فـ(التوبة والإيمان والعمل الصالح) هذه الثلاثة موضوعة في صعيدٍ واحدٍ مفروضة لمن أراد ترك الكفر واختيار الإيمان بالمفاهيم الثلاثة التي انصهرت في مطلوبٍ واحد ملابسةً.

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. الصفحة ١٥٨.

(٢) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ٣١٨/٨.

التقابل في مصطلح (الهدى):

يتقابل مصطلح (الهدى) الذي بمعنى الإرشاد في أصل المفهوم[1] مع مصطلح (الضلالة) و(الضلال) الذي معنى الضياع والهلاك[2]؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦] وغيرهما من الآيات التي يتقابل فيه المصطلحان (الهدى) و(الضلالة)؛ تأسيساً لحال الفريقين، فريقٌ صدّق وآمن وأسلم فاهتدى، وفريقٌ كذّب وتولّى وكفر فَضَلَّ.

لكنه قد لا يأتي المصطلحان متلازمين دائماً، بل قد يبدل أحدهما بلازم الآخر أو فرعه أو سببه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧] فقوبل (الهدى) بـ(العمى)، والمقصود بالعمى عمى القلوب التي هي موضع التعقل والإيمان، بدليل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦] وبذلك يكون العمى بديلاً لمصطلح (الضلالة)؛ للمشابهة الحاصلة بين الأعمى ومن يضل الطريق، وهو التيه وعدم إدراك الحقيقة، فمن يضلّ فهو كالأعمى، على طريقة الاستعارة من خلال تشبيه عدم الانتفاع برؤية الهدى من الآيات وغيرها بعمى الأبصار بجامع عدم الانتفاع ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به على الاستعارة التصريحية، فجعل العمى مقابلاً للهدى لما يفيده من أنه لم ينتفعوا بما رأوه من آيات الهدى ولم يعملوا بها فكان حالهم مثل حال من لا بصر له، والتكرار منهم لعدم الانتفاع والتغافل عن توجيهات الوحي ملزمٌ للقوبة عليهم لا محالة كما يدل عليه قوله تعالى:﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٧١]

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. الصفحة ١٠٢٧.

(٢) الجوهري، الإمام إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ): معجم الصحاح. دار المعرفة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. الصفحة ٦٢٤.

فتذييل الآية بقوله (والله بصير بما تعملون) ردّ على تغافلهم وتعاميهم عن الحق، فلو أنهم يتعامون لكن الله يبصر ما يعملون انذاراً لهم وتذكيراً[١]. إضافةً إلى ذلك جاء المصطلحان (العمى) و(الهدى) متقابلين، لكن الأول جاء متوسّلاً بالمجاز؛ لأنّ المقصود منه هو (الضلالة) وليس عيب جارحة العين، كما هو مفهومٌ عموماً، فالمقصود عمى البصيرة وليس عمى البصر. وهذا من باب استعارة المحسوس للمعقول لمناسبةٍ بينهما[٢].

والبيان هنا أوجَبَ استعمال مصطلح حسّي (العمى) بدل المصطلح المعنوي (الضلالة)؛ للتفهيم والإدراك لواقع حال الضلال المؤدّي إلى العمى بمعنى الكفر[٣]. والهدى المقصود في الآيات التي ذكرناها هو البيان وليس الإرشاد؛ لأنهم لم يسترشدوا، وضاع عليهم الحق؛ ولأن الإرشاد يأتي بعد الاسترشاد، فهم لم يقبلوا الرشد أصلاً برفضهم البيان، فعموا عن الحق[٤].

التقابل الدلالي بين لوازم المصطلحات

إذ قد ينوب المصطلحَ الأساسَ مصطلحٌ متفرعٌ من مفهومه كلازمٍ من لوازمه أو نتيجة من نتائج وجوده، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩] فهنا جاء مصطلحا (الهداية) و(العدل) ليدلّا على مفهومي (الإيمان) و(القسط/الحكم)، فالتبعيض بـ(من) دلّ على أن قوم موسى لم يكن كلّهم على ضلالة في اتخاذهم العجل، بل كان منهم من ثبت على إيمانه (هدايته) يهتدون به،

---

(١) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ٢٠٦/٣. وانظر: الأصفهاني، الإمام الراغب: مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم ودار الشامية، دمشق-بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. الصفحة ٥٨٨.

(٢) الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. دار الجيل والمكتب الثقافي، بيروت-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. الصفحة ١٨٧.

(٣) الشنقيطي، العلاّمة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار عطاءات العلم/ دار ابن حزم، الرياض-بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م. ١٣٤/٧.

(٤) ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ١٠/٥.

وبهذا الإيمان يحتكمون (يعدلون) مقسطين لا قاسطين[1]، فبدل أن يقول (يؤمنون بالحق) و(به يحتكمون)، أورد لازم المصطلحين؛ ليدلّا على الإيمان والاحتكام؛ لكونهما من مصادر الحق والحكم، إضافةً إلى معنى اللفظين في الاهتداء والعدل؛ لتجمع الآية أربعة مفاهيم حركية في العمل الإيماني (الاهتداء والإيمان والاحتكام والعدل)، إضافةً إلى ما تعنيه كلمة (أُمّة) وما تحمله من مضامين فكرية عميقة في البناء الجماعي، وتبعيض قوم موسى؛ ليدلّ على أن من سواهم هم على النقيض من المفاهيم الواردة، فبمفهوم المخالفة يتقابل مصطلح (الهداية) مع (الضلال)، و(العدل) مع (الجور)، فالنشاط المصطلحي الاستدلالي واضحٌ في البناء المفاهيمي للآية.

ومن قبيل ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن:١٤-١٥] فقد قابَلَ (المسلمون) بـ(القاسطون)، وهما من لوازم (الإيمان) و(الكفر)، ولمّا كان الإسلام من لوازم الإيمان دلّ على أن الإيمان مضمّنٌ في قوله (المسلمون)، فالإيمان يستلزم الإسلام، وكذا الكفر يستلزم عدم العدل والجور، فالمصطلحان الأساسيان هما الإيمان والكفر، فأورد بدلهما ما يستلزمهما؛ ليكونا معنيين مقصودين، بمعنى أن المصطلحين (الإسلام) و(القاسط) مقصودان لذكرهما في النص، ومصطلحي (الإيمان) و(الكفر) مقصودان أيضاً؛ لوقوع المصطلحين المذكورين في دائرتيهما الدلالية. فالمسلمون في الآية يدلّ على أنّهم مؤمنون؛ لأنه ورد في مقابل الجور (القاسطون)، و(القاسطون) يدلّ على أنّهم كافرون؛ لأنّه وقع في مقابلة مفهوم المسلمين[2]؛ ولتحقّق مصيرهم في جهنم في الآية التالية (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً).

ومثلُهُ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥-٣٦] فقابَلَ المسلمين بالمجرمين، والمقصود بالمجرمين الكفّار؛ لأنّ الكافر مجرمٌ لا محالة، وأجرمُ ما فيه شركه وكفره بالله ناهيك عن الذنوب التي يرتكبها مستحلاً إياها، والأصل استعمال كلمة (بريئين) لتقابل كلمة (المجرمين)، أو المسلمين لتقابل (الكافرين)، ولكن تخصيص كلمة (المجرمين) جاء لبيان جرم الكافر لا محالة. والآية التي بعدها تؤكد فيصل

(١) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي: مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير. ٣٨٧/١٥. وانظر: ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ٤٤٧/٤

(٢) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ٢٠٤/١٢.

التفرقة بينهما، بالاستفهام الإنكاري، وهذا يبين أن المصطلحين متضادان على نمط الطباق، وبالتالي فإن السياق ذكر ما مجموعه أربعة مفاهيم، ذكر اثنين منها لفظاً (المسلمين) و(المجرمين)، واثنين آخرين هما (البريئين) و(الكافرين) استلزمهما التقابل الحاصل بين المصطلحين الملفوظين.

إن لغة القرآن الكريم هنا تريد الوصول إلى المتلقي بآليات لغوية بلاغية واضحة بوسائل إبلاغية أمينة، وعدم التحايل عليه بوسائل غير أمينة كما هو معمول به في الخدع اللغوية لكسب المتلقي عن طريق استعمال لغوي غير أمين الجانب يتوهّم معه الحق وما هو بحق، كمثال المصطلحات الوافدة إلى المجتمع الإسلامي من البيئات غير الإسلامية التي تفرض على المجتمع نمط تفكيرٍ لا يتلائم مع عقائده وإيمانه وتربيته على العادات والتقاليد الرصينة[١]، فالمصطلح القرآني مباشرٌ وواضح، يتعامل مع المنطق مثلما يتعامل مع الأحاسيس والانفعالات، ومع فطرة الإنسان وطبيعته الخلقية، فهو يتعامل مع جميع المسالك التعبيرية للإنسان.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ [الواقعة:٩٠-٩٤] فالذي يقابل مصطلح (أصحاب اليمين) هو مصطلح (أصحاب الشمال) بدليل قوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة الواقعة: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، وقوله تعالى بعد ذلك في الآية (٤١) من السورة نفسها: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ وفي اللغة أيضاً اليمين يقابل الشمال مخالفةً[٢]، ولكنّه لم يعد الكرَّةَ مرةً أُخرى بذكر المصطلحين متقابلين كما حصل في السابق، بل جاء بين الآيتين (٩٠-٩٤) المصطلح الأساس (أصحاب اليمين)، ثم أردفه مقابلاً لمصطلح (المكذبين الضالين)؛ دلالةً على مصطلح (أصحاب الشمال) دون ذكره؛ بل ذكر أوصافهم وأعمالهم فهم مكذبون ضالون فذكر المصطلح وما يقابله من آثار الوصف أي بذكر لازمه وهو تكذيبهم وضلالهم؛ لأنّ من

(١) حلوة، د. نوال: التقابل الدلالي. ضمن دورية كتاب علوم البلاغة الفصلية. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، السنة ٢٠٠٦، المجلد ٩، العدد ٢، الصفحة ١٤٤. وانظر: محي الدين، مفيد فريد: إشكالية المصطلح في الفكر الإسلامي. دار العصماء، دمشق-سوريا، الطبعة الأولى،٢٠٢٠م.

(٢) الجوهري، الإمام إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ): معجم الصحاح. الصفحة ١١٧٢.

صفات أصحاب الشمال وأعمالهم أنهم مُكذِّبون وضالّون[1]، فكان مفهوم (أصحاب الشمال) حاضراً مع تخصيص بوصفي التكذيب والضلال في الورود.

المحور الثاني: التقابل التركيبي للمصطلح القرآني

والمقصود بالتقابل التركيبي أن يتم التقابل على أساس أن المصطلح المستعمل في النص القرآني يعوز إلى مصطلح آخر قرآني يأتي في سياقه ليرجح مفهومه المقصود المحدّد، وليس المفهوم العام له، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٥-٨٦] فقوبل (نحشر) بـ(نسوق)، و(المتقين) بـ(المجرمين)، و(الرحمن) بـ(جهنم)، و(وفداً) بـ(ورداً)، ولكل مقابلة من هذه المقابلات سببه الدلالي ومن ثمَّ مفهومه المصطلحي، فالحشر هو الجمع المطلق، والمحشر مجمع الناس[2]، ويكون حسب السياق، فإن أُضيف إلى حسنٍ فهو حسن، وإن أُضيف إلى سيّءٍ فهو سيّء، فقد جاء في سياق الشر في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢] وقد جاء في سياق الخير كما في آية سورة مريم، بدليل أنه أُضيف إلى المتقين، وقوبل بـ(نسوق) من سوق البهائم زجراً، ولا يكون سوق البهائم إلا زجراً لكيلا تفلت وهو بمعنى الحمل والحثّ على الإسراع[3]، فشبّه حال الذين يُقادون إلى جهنّم بالخوف والزجر بالبهائم حين سوقها[4]. واستعملت كلمة (المتقين) لتدل على المؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد:٣٥]؛ ولأنّ التقيّ لا بدّ أن يكون مؤمناً، بدليل أنه قابل المتقين بالمجرمين؛ لكون المجرمين هم الكافرون لا محالة كما أسلفنا الذكر في قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

---

(١) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي). ١٨٤/٥.

(٢) ابن منظور، الإمام العلامة (ت٧١١هـ): لسان العرب. دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م. ١٨٤/٣.

(٣) جبل، العلامة محمد حسن حسن: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم. مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م. ٦٦٨/١.

(٤) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ١٠٩/٧.

وفي الآية نفسها تقابل (الرحمن) مع (جهنم)، على الرغم أن الأصل أن يتقابل (الرحمن) مع (الشيطان)، و(الجنة) مع (جهنم)، وقد جمع لفظ الرحمن مع جهنم، من باب جمع المجزيّ والجزاء، ليعين هذا على استذكار المقابل لهما، وهما (الشيطان) المجزى بسببه، و(الجنة) التي تقابل جهنم في الجزاء. ثم يتقابل (وفداً) مع (ورداً)، وقد جاء (وفداً) ليفسر كلمة (الرحمن)؛ لأنّ الوفد يعني قصد إشراف ورفعة[١]، وهو مكرّم في كل الأوقات، محمولاً ركباناً، وأن الرحمن هنا المقصود منه صفة الملك والتعالي من الله سبحانه؛ بسبب التقابل الحاصل، وتناسبت كلمة (ورداً) مع حال سوق البهائم ليورد الماء كراعاً، وهي عطشى، والورود لا يكون إلا للعطشى من البهائم، ومن يردون على جهنم هم كذلك عطشى من الهول والحرّ[٢].

وفي كل الأحوال لم تكن هذه الكلمات لتدل على مفاهيمها القرآنية لولا انضمام بعضها مع بعضٍ في تركيب تقابلي ليكون كالآتي:

الكلمة المصطلح عليها	المعنى الأصلي	المعنى المصطلحي التقابلي
نحشر	الجمع من تفرّق إلى مصير ومآل[٣]	جمع المؤمنين
نسوق	جمع البهائم وتمشيتها سوقاً[٤]	جمع الكافرين المجرمين
المتقين	من تجنب ما حرّم الله	المؤمنين[٥]

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. الصفحة ١٠٦٠. وانظر: جبل، العلامة محمد حسن حسن: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم. ٢٩١/٢.

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). تحقيق: عبد الرزاق المهدي. دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. ١٤١/١١.

(٣) جبل، العلامة محمد حسن حسن: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم. ٢٩٤/١.

(٤) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. الصفحة ٤٧٦.

(٥) ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام (ت٥٤٢هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ. ٣٢/٤.

الكلمة المصطلح عليها	المعنى الأصلي	المعنى المصطلحي التقابلي
المجرمين	من أذنب آثماً	الكافرين
الرحمن	الله سبحانه بصفة الرحمة الواسعة[١]	الله بصفته الملك المتعال وجنته[٢]
جهنم	النار الموقدة يوم القيامة[٣]	النار والشيطان
وفداً	الرسل عند الملوك[٤]	السائرين إلى جناب الله سبحانه
ورداً	موافاة البهائم على المياه[٥]	استصغاراً وتخويفاً وتحذيراً

فالتركيب التقابلي هنا كالعقد المنظوم يشدّ بعضه بعضاً، فإذا انفرد كلٌّ منه انفرط العقد وتناثرت حباته، بمعنى أُلغي المفهوم، الذي بوساطة التقابل رُكّب في جملتين على أساس المقابلة. ويصدق حينئذٍ قول عبد القاهر الجرجاني في بيان نظم الكلم: "فهو إذن نظمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعضٍ، وليسَ هو "النَّظم" الذي معناهُ ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق؛ ولذلك كان عندهم نظيراً للنسخ والتّأليفِ والصياغةِ والبناءِ والوَشْيِ والتحبير وما أَشبَه ذلك، مما يُوجب اعتبارَ الأجزاءِ بَعْضِها معَ بعضٍ، حتى يكونَ لوضعِ كلِّ حيثُ وُضع، علةٌ تَقْتَضي كونَه هناك، وحتى لو وُضِع في مكان غيره لم يصلح"[٦] وهذا قولٌ في الكلام الفصيح العادي تنظيراً لنظم الكلم قبل الخوض في بلاغة القرآن الكريم، فما بالك فيما كان في قمة البلاغة والتعبير؟!

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، دار الجفان والجابي، قبرص، الطبة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. الصفحة ٦٢.

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). ١٣٨/١١.

(٣) السمين الحلبي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدايم (ت٧٥٦هـ): عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. ٣٥٥/١.

(٤) المصدر نفسه، ٣٢٥/٤.

(٥) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. الصفحة ١٠٥١.

(٦) الجرجاني، الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز. قراءة وتعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر. دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. الصفحة ٤٩.

ويعني هذا أن التقابل المصطلحي هو وسيلة للتوليد المصطلحي، والإدراك المفهومي، من خلال تقابل دلالتين لتوليد مفهومٍ معيّن لا يُفهم إلا من خلال التقابل، وإلا يكون للمصطلحين في الإفراد دلالة مغايرة لما في التقابل. فليس شرطاً أن يكون المجرم كافراً في غير هذه الآيات، لكنه كافرٌ لدلالة التقابل على ذلك في هذه الآية، وبذلك يكون لكل آية ومصطلحاتها خاصّة مفهومية لا تشاركها فيها آية أُخرى، وإن استعمل فيها المصطلح نفسه؛ لأنّ المصطلح بانضمامه إلى مصطلحات أُخر يتركّب منه مفهومٌ محدّدةٌ ملامحه الدلالية ومعيّن فيه توجيهه الأسلوبي والإبلاغي؛ لبيان المقصود الكافي للفهم.

التقابل المصطلحي بين الحقيقة والمجاز

إنّ دراسة التقابل المصطلحي في القرآن الكريم ترشدنا إلى قيمة إبلاغية متجدّدة في التقابل الحاصل، من خلال استعمال الحقيقة والمجاز في بناء المفهوم، فالمهمة الأساسية للمصطلح القرآني سواء جاء على حقيقته، أو جاء متوسّلاً بالمجاز هو الوصول إلى المفهوم المقصود بالإبلاغ، ببناء يرتسم بالملامح الدلالية الكافية للوصول إلى ذلك المفهوم المراد.

إنّ التقابل بين مصطلحين قرآنيين ظاهرة مطّردة في القرآن الكريم، لكنّها تتعدد أنماطها حسب الحاجة الإبلاغية، وكيفية التقابل هي التي تحدّد إطار المفهوم المقصود إبلاغه، فجاء التقابل بين ما هو حقيقي وما هو مجازي في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩] فمعلومٌ أنّ الشدة ضدّ اللين وليس الرحمة، والرحمة ضد القسوة وليس الشدّة، والأصل أن يُقال (أشداء على الكفار ليّنون بينهم)، لكنه عدل إلى (رحماء)؛ لأن الرحمة سبب اللين، فسمّى اللين باسم الرحمة، من باب تسمية الشيء باسم سببه، فهو مجازٌ مرسل كما مبيّن، فالمصطلح الأول (أشداء) على حقيقته، والمصطلح الثاني على المجاز؛ استصحاباً لمعنى الرحمة ومفهوم اللين فيه؛ لأنّ المؤمنين ألين الناس جانباً فيما بينهم(١).

فاستعمال المجاز في التقابل يخرج المفهوم على نمطٍ إبلاغي واضح؛ ليدلّ على المراد بدقة متناهية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر:٤١-٤٢] ففي الآية الأولى استعمل القرآن مصطلح (النجاة)،

(١) الدسوقي، محمد بن عرفة: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني. تحقيق: عبد الحميد الهنداوي. المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، د.ط، د.س. ١٢/٤.

بدل مصطلح (الإيمان) الذي ينجو به الإنسان من عذاب النار، فاستعمال (النجاة) مجازٌ مرسلٌ بإطلاق المسبب وإرادة السبب، من قبيل إطلاق النجاة من العذاب وإرادة الإيمان بالله سبحانه الذي هو سببٌ لذلك، وكذلك في استعمال مصطلح (النار) الذي يعذّب به الإنسان جزاءً، من قبيل إطلاق النار على الكفر، والمقصود من الاستعمالين المجازيين الترغيب بالإيمان في الأول (النجاة)، والترهيب من الكفر في الثانية (النار)، إذ صوّر مفهومي (الإيمان) و(الكفر) في لباس مصطلحي مجازي مبالغٍ فيه ليترائيان كأنّهما الشيء نفسه، فالنجاة هي الإيمان، والنار هو الكفر[1]. وعطف الاية الثانية على الأولى بيانٌ لما جرى توظيفه إبلاغياً في اتخاذ المصطلحين (النجاة) و(النار) وتعليلٌ لهما، ولا شكّ أن هذا نشاطٌ مصطلحي تعليلي فائق المستوى التبييني للمفاهيم؛ ليكون الارتباط بين الكفر والإشراك وكيفياتهما (عدم العلم)، وتخيّر الاسمين (العزيز) و(الغفّار) مقابلهما[2].

إنّ دراسة المصطلح القرآني يجب أن تكون ضمن آلية تحديد المأخوذ والمأخوذ منه في دائرة الحقيقة والمجاز، فإنّ كل مصطلح قرآني له حظّ من المجاز بمعناه التجوّز في استعمال كلمة في غير ما وضع له أصلاً لعلاقةٍ بين مفهومه الجديد ومعناه القديم؛ لذلك فإن التشابه والتلبّس الحاصل بينهما هو المحكّ في تحديد المفهوم الجديد الذي عناه المصطلح القرآني ضمن الضمائم والعلاقات الدلالية في سياق النص. وهذا ما أشرنا إليه سابقاً ضمن مناسبات التسمية؛ ولذلك يكون التقابل المصطلحي على أساس المفهوم الجديد الذي أفرزته المناسبة، إذ اختيرت الكلمة لتعبر عن مجال مصطلحي خاصّ بالقرآن الكريم؛ لإنجاز وظيفة إبلاغية ينعم فيه المتلقي بالوضوح والبيان في فهم القرآن. ولن يكون لأي دراسة قرآنية حظٌّ من التوفيق في وظيفته الإبلاغية ما لم تنطلق أولاً من المفهوم الذي ينتجه المصطلح القرآني، ومتابعة بنائه المفهومي عندما انتقل من الدلالة المعجمية ومن ثمّ من المفهوم المصطلحي ضمن بيئة النمو والتفاعل الإنساني مع لغته، إلى الاستعمال القرآني الذي يريد إبلاغ المتلقي ما يريده سبحانه بالأدوات اللغوية المعجمية والمصطلحية المستعملة من قِبَل الإنسان؛ لذلك كان القرآن الكريم هو النص الذي استطاع أن يعبّر عن إرادة الله عزّ وجلّ بما تعارف عليه الإنسان من كلمات، ولكن على نمط آخر من الإبداع والخلق الأدبي واللغوي لم يعرفه البشر،

---

(١) الزركشي، الإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن. الصفحة ٣٨١. وانظر: المطعني، د. عبد العظيم إبراهيم: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م. ٤٦٥/٣.

(٢) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ٧٤٠/٩.

لتُسلّطَ الضوءَ على زوايا لغوية لم تتصوّرها العقلية الإنسانية من تخيّر اللفظ وإنشاء المفهوم، والتركيب القويم والتماسك النصي، مثلما رأيناه في التقابل المصطلحي ونظامه في إبراز المفهوم من التركيب التقابلي على أحسن وجه.

ولابدّ أن نشير إلى أنّ دراسة المصطلح القرآني وتوحيد الجهود فيه، وإدراك نظامه في التناسب والتقابل والتخيّر، يؤدي إلى نشوء مبدأ مصطلحيّ عام مشترك في التوجّهات العديدة في الدراسات القرآنية ومنها التفسير الموضوعي(١). هذا المبدأ يوحّد الأرضية التي ينطلق منها الفهم القرآني في أية دراسة لنص القرآن الكريم.

ومثاله مصطلح (العقل)، استعملته التيارات الفلسفية والكلامية قبل نزول القرآن وبعد نزوله، وتلقفته المؤلفات والتنظيرات ليدل على مفاهيم رآها أصحابها في دائرة التفكير الإنساني، هي مفاهيم متعددة، لتعدد مصادر النحت والتوليف المصطلحي، منذ أحقابٍ سحيقة من التاريخ، مروراً بالفلسفات الإغريقية والفارسية والهندية، وحتى بعد مجيء الإسلام، كانت التيارات الفلسفية والكلامية تتناكف حول مصطلح (العقل) على أُسسٍ عقلية صنعت في بيئات مختلفة؛ لتنتج رؤى مختلفة، ولا يعدو آنذاك إلا تحليل رؤية صاحب التحليل لمصطلح العقل(٢).

لكنّ القرآن الكريم جاء لينشأ لهذا المصطلح قيمة في ذاتية المفهوم في إطار دلالي خاصّ بالقرآن الكريم بعيداً عن التحليلات الفلسفية القديمة قبل الإسلام، وحتى التي جاءت بعد نزول القرآن الكريم، متناغماً مع أصله الوضعي في اللسان العربي؛ لذلك فحين جاء مصطلح (العقل) للتعبير عن الحالة الخاصة في المفهوم القرآني لم يكن له صيغة واحدة، وقالب جامد(٣)، بل جاء على نمط لافتٍ للنظر، فلم تأتِ كلمة (عقل) بالصيغة الاسمية ألبتة في القرآن الكريم، رغم أن كل الفلسفات الأجنبية، والتيارات العقلية الإسلامية أيضاً استعملت الكلمة بصيغتها الاسمية في الأعمّ الأغلب، ولكن القرآن الكريم جاء به على الصيغة الفعلية فقط دون الاسمية، وفي حدود الفعل المضارع المسند إلى جمع المخاطبين (تعقلون) في (٢٤)

---

(١) زمرد، د. فريدة: الدرس المصطلحي للقرآن الكريم بين التأصيل والتطوير. مركز الدراسات القرآنية/ دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط-المملكة المغربية، الطبعة الثانية، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م. ٨٦.

(٢) إزوتسو، توشيهيكو: الله والإنسان في القرآن/ علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم. المنظمة العربية للترجمة/ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧. الصفحة ١١٥.

(٣) المصدر نفسه.

موضعاً، وجمع الغائبين (يعقلون) في (٢٢) موضعاً، والمتكلمين (نعقل) في موضعٍ واحد فقط، والمفرد الغائب (يعقلها) في موضعٍ واحدٍ فقط أيضاً، وصيغة الفعل الماضي في موضعٍ واحدٍ (عقلوه)، وبذلك يكون مجموع ورود هذا المصطلح (٤٩) موضعاً[١]، أغلبه في صيغة الفعل المضارع، إذ يدلّ الفعل المضارع على التجدّد وخاصةً في سياق النفي بـ(لا)؛ لأنه حينذاك لا يختص بزمن دون زمن[٢]، أي إنّ عملية التعقل ليست في إطار التفكير والإدراك العقلي، بل تتعداه إلى إشراك مجالاتٍ إنسانية أُخرى في القرار الإيماني وعناصر أُخرى في النفس الإنسانية، كالروح والعاطفة والخيال والسمع والبصر في إطار عمل مشترك لإبراز التعامل الإيماني مع الاعتقاد وليس التعامل الرياضي المنطقي فقط، وهذا ما يظهر في تقابل هذا المصطلح الفعلي مع مصطلحات أُخرى تبرز هذه العناصر، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٢] فضلالهم كان نتيجة عدم عقلهم، فبدل أن يقول (أفلم تكونوا تهتدون)، قابل العقل بالضلالة، بدل الهداية؛ فقد جاء بوسيلة الهداية وسببها وآلتها وهو العقل؛ لأنّ الإنسان غير مكلّف إنْ فَقَدَ العقلَ، لكنّه مكلّفٌ وإنْ لم يستعمل العقل مع سلامته، وبذلك تكون الوظيفة الإبلاغية لمفهوم الآية بين المصطلحين (الضلال) و(العقل) هو الوصول إلى الحق بإعمال العقل باعتباره كينونة ذاتية في الإنسان؛ ولذلك استعمل الفعل الناقص (تكونوا)، وبخطابٍ مباشر للتوبيخ[٣].

وقد جاء المصطلح بصيغة الفعل في نسق مصطلح (الآيات) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧]؛ لأنّ الآيات تأتي للبيان والتوضيح والاستدلال، وهذه العناصر لا تتمّ إلا من خلال إعمال العقل،

---

(١) جلغوم، عبد الله إبراهيم: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم بالرسم العثماني. مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض–المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م. ٧٧٣/٢.

(٢) الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن(ت٧٣٩هـ): الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: غريد الشيخ محمد وزميله. دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، د.ط، ٢٠١٤. الصفحة ٦٨. والسامرائي، د. فاضل صالح: معاني الأبنية في العربية. دار عمّار للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. الصفحة ٩. والسامرائي، د. فاضل صالح: معاني النحو. دار السلاطين، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م. ٣١٦/٣.

(٣) ابن عاشور، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. ٣٤٢/٩.

وليس في إدراجه في قالب التصوّر فقط، أي إنّ العقل يعمل في الآيات ليصنّفها ويستدلّ بها؛ لتكوّن البرهان الذي لا يقبل الشكّ مبتعداً عن الظنّ والوهم، ودلالة الفعل المضارع دلالة غير ثابتة بل تتجدد في مناحي النفس البشرية منها النظر والاستدلال كما يفهم من هذه الآية.

وعلى الرغم أن العقل اشتهر بين الفلاسفة وأهل الكلام أنه يتناول شؤون الإدراك والفهم وتحليلاته، فإن القرآن الكريم تجاوز هذه المراحل إلى تناولها العقل لشؤون الروح والنفس وتهذيبها، وما الآية السابقة الذكر إلا مثال على ذلك، فالآية جاءت في سياق أعمال القلوب وهي الذكر والخشوع وقسوة بعض القلوب كما جاء في الآية التي سبقتها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦] فإذاً وظيفة العقل في القرآن الكريم تجاوز التحليل المنطقي، والمنطق الرياضي، والمقدمات العقلية التي تبحثها الفلسفة وعلم الكلام، إلى تناوله مسائل بدت من اختصاصه رغم عدم وجودها في السياقات الفلسفية والكلامية قبل نزول القرآن أو بعده مثل الذكر والخشوع ولين القلوب وقسوتها(١). وهذا يتناغم مع القول إنّ العقل محله القلب، وهذا قول كثيرٍ من العلماء منهم الفخر الرازي من القدماء والطاهر بن عاشور من المحدثين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩] فلا يفقهون يعني لا يفهمون، والفهم من وظيفة العقل، فالوظائف الإنسانية العقلية الإيمانية الفكرية الاعتقادية ساحة عملها هي القلب (على الرغم من الخلاف الحاصل بين العلماء حول هذا الموضوع)، أمّا أعمال التوجيه البشري الذهني الرياضي فهي من عمل الدماغ(٢)، والحواسّ الأساسية في الإنسان كالسمع والبصر والعقل لن تقوم بمهامها الإيمانية

(١) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (٧٤٥هـ): البحر المحيط في التفسير. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر، بيروت-لبنان، د.ط، ١٤٢٠هـ. ١٠٨/١٠.

(٢) القلموني الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين (ت١٣٥٤هـ): تفسير المنار. ٣٥١/٩. وانظر: الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي: مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير. ٤١١/١٥. وأمحزون، أ.د. محمد: المصطلحات في القرآن الكريم/ المعاني والدلالات. دار ابن كثير، دمشق-سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م. ٢٢٠/٥.

إلا بحضور القلب؛ لأنه موضع التفاعل والتأثّر والقناعة والإيمان، فنتج عن الاستعمال القرآني لهذا اللفظ مفهوم ارتقى به إلى تعبير مصطلحي خاصّ بالخطاب القرآني ليعمّ مفهومه عند المتلقين عموماً، والمؤمنين خصوصاً[1].

وبذلك يكون عنصر الاستعمال القرآني للمصطلح هو المحكّ في تحديد المفهوم، وبيان المقصود، وتداول هذا الاستعمال في حركة دلالية مؤصّلة داخل القرآن الكريم يوحي بالرصانة والثبات المفهومي لإتمام الإبلاغ المناسب للمقام المناسب؛ لتنشأ خصائص تداولية للمصطلح القرآني قوامها الحجاج وأساليبه.

(١) إدريس، د. أحمد البشير أحمد: الإعجاز العلمي في الإشارة للقلب بأنه المدخل الوحيد إلى مراكز الإدراك في العقل البشري. مجلة الإعجاز العلمي، تصدرها الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٤٥، ذو الحجة ١٤٣٤هـ. الصفحة ٤٨. وانظر: أحمد، أ.د. فؤاد يحيى: القلب بين القرآن والطب. مجلة الإعجاز العلمي. العدد ٤١، شعبان ١٤٣٣هـ، الصفحة ٦.

الخاتمة ونتائج البحث

إنّ مما سبق ذكره في هذا البحث نستنتج عدة أُمور:

١. إن الاصطلاح على لفظة معينة في القرآن الكريم تتمّ عبر قنوات متعددة الكيفيات، منها التقابل المصطلحي، الذي تتولّد منه المفاهيم المتساندة من خلال التلفظ به عن طريق تخيّر مصطلح يتقابل مع آخر في توجيه الخطاب والإبلاغ عنه، كالمقابلة الحاصلة بين (الإيمان والكفر) و(الهدى والضلال).

٢. إنّ التقابل المصطلحي له مظاهر متعدّدة يستوجبه المفهوم المراد الخطاب به، منها انكفاء المصطلح الأساس، وتعويضه بما يستلزمه هذا المصطلح، وبسببه أو بنتيجته أو بمظهرٍ من مظاهره، كما هو حاصل في التقابل بين (الإيمان) ولازم الكفر (الاستكبار)، أو التقابل الحاصل بين (الإيمان) ولازم الكفر (الفسوق).

٣. إنّ السياق هو الذي يتحكم في صناعة المفاهيم على أساس التقابل بين جهتين متضادتين أو مختلفتين، إذ ينشأ من التقابل مفاهيم لا يوجد خارج هذا التقابل، فالظلم ليس كفراً، لكنّه إنْ تقابل مع الإيمان أصبح ممّا يُقصد من شبكة مفاهيمه هو الكفر، وليس كل مجرم كافر، لكنّه إذا تقابل مع الإيمان في سياق محدّد أصبح من ضمن مفاهيم الكفر.

٤. تكرار المصطلح في آيات متعددة ليس بالضرورة أن يكون بالمعنى نفسه، بل يختلف المفهوم حساب آليات نَحْتِ المصطلح ومظهر أسلوبه ومجال وروده.

٥. وجود مصطلح قرآني في سياق الآية له خاصّيّة تتفرد بها عن غيره من مواضع الورود، ويتأكّد ذلك في التقابل المصطلحي.

٦. التقابل المصطلحي يقوم هو أيضاً بدوره باستعمال آليات إبلاغية متنوعة منها، استعمال الحقيقة والمجاز في طرفي التقابل ليحصل التوافق على مفهومٍ مُراد إبلاغه في الآية.

٧. إن التقابل المصطلحي يكشف سرّ الاستعمال القرآني للمصطلح، وتداوله في سياق الكلام، وهذا يعني أنّ دور المصطلح القرآني يتجاوز الدلالة المعجمية إلى المفهوم المصطلحي، المؤكد لخطاب الوحي والمبيّن له، فهو إذاً عنصر مميّز من عناصر البيان فيه، وبالتالي مرتكز من مرتكزات الإبلاغ الواضح البيّن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

ثبت المصادر

- ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. دار ابن حزم ودار سحنون، بيروت–تونس، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م.
- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- ابن قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧): نقد الشعر. مطبعة الجوائب، قسطنطنية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
- ابن منظور، الإمام العلامة (ت٧١١هـ): لسان العرب. دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- أحمد، أ.د. فؤاد يحيى: القلب بين القرآن والطب. مجلة الإعجاز العلمي. العدد ٤١، شعبان ١٤٣٣هـ.
- إدريس، د. أحمد البشير أحمد: الإعجاز العلمي في الإشارة للقلب بأنه المدخل الوحيد إلى مراكز الإدراك في العقل البشري. مجلة الإعجاز العلمي، تصدرها الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٤٥، ذو الحجة ١٤٣٤هـ.
- إزوتسو، توشيهيكو: الله والإنسان في القرآن/ علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم. المنظمة العربية للترجمة/ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.
- الأصفهاني، الإمام الراغب: مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم ودار الشامية، دمشق–بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- أمحزون، أ.د. محمد: المصطلحات في القرآن الكريم/ المعاني والدلالات. دار ابن كثير، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م.
- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (٧٤٥هـ): البحر المحيط في التفسير. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر، بيروت–لبنان، د.ط، ١٤٢٠هـ.
- البقاعي، الإمام المفسّر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.س.

- البلخي، الإمام أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي (ت١٥٠هـ): تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق: أحمد فريد. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي). تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- جبل، العلامة محمد حسن حسن: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم. مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
- الجرجاني، الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز. قراءة وتعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر. دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- جلغوم، عبد الله إبراهيم: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم بالرسم العثماني. مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض–المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- الجوهري، الإمام إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ): معجم الصحاح. دار المعرفة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الحاتمي، أبي علي محمد بن الحسن بن المظفر (ت٣٨٨): حلية المحاضرة. دار الرشيد للنشر، من مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة كتب التراث (٨٢)، بغداد، د.ط. ١٩٧٩م.
- حلوة، د. نوال: التقابل الدلالي. ضمن دورية كتاب علوم البلاغة الفصلية. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، السنة ٢٠٠٦، المجلد ٩، العدد ٢.
- الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن(ت٧٣٩هـ): الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: غريد الشيخ محمد وزميله. دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، د.ط، ٢٠١٤.
- الدسوقي، محمد بن عرفة: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني. تحقيق: عبد الحميد الهنداوي. المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، د.ط، د.س.
- الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. دار الجيل والمكتب الثقافي، بيروت–القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي: مفاتيح الغيب/ التفسير الكبير. دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠م.
- الرواجفة، أيمن عيد وسليمان الدقور: التناظر في القرآن الكريم/ تأصيل وتطبيق. مجلة إسلامية المعرفة، السنة الرابعة والعشرون، العدد ٩٦، ربيع ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
- الزركشي، الإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي. بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- زمرد، د. فريدة: الدرس المصطلحي للقرآن الكريم بين التأصيل والتطوير. مركز الدراسات القرآنية/ دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط–المملكة المغربية، الطبعة الثانية، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.
- السامرائي، د. فاضل صالح: معاني الأبنية في العربية. دار عمّار للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- السامرائي، د. فاضل صالح: معاني النحو. دار السلاطين، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- السكاكي، أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي (ت٦٢٦): مفتاح العلوم. تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- السمين الحلبي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدايم (ت٧٥٦هـ): عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الشعراوي، الشيخ محمد متولي: تفسير الشعراوي/ الخواطر. مطابع أخبار اليوم، القاهرة، د.ط، ١٩٩٧.
- الشنقيطي، العلاّمة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار عطاءات العلم/ دار ابن حزم، الرياض–بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.
- العسكري، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: كتاب الصناعتين. علّق عليه: د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- عمر، د. أحمد مختار: علم الدلالة. عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، دار الجفان والجابي، قبرص، الطبة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). تحقيق: عبد الرزاق المهدي. دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- القرعان، الدكتور فايز عارف: التقابل والتماثل في القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث، إربد– الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى الباب الحلبي، القاهرة، د.ط، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- القلموني الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين (ت١٣٥٤هـ): تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٩٩٠م.
- القيرواني، أبي علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الطلائع، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٩م.
- محي الدين، مفيد فريد: إشكالية المصطلح في الفكر الإسلامي. دار العصماء، دمشق–سوريا، الطبعة الأولى،٢٠٢٠م.
- المراغي، أحمد بن مصطفى: تفسير المراغي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.
- مسلم، أ.د. مصطفى: مباحث في التفسير الموضوعي. دار القلم، دمشق–سوريا، الطبعة الثامنة، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- المطعني، د. عبد العظيم إبراهيم: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم. مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- هني، أ.د. سنية: تناظر المشتقات في القرآن الكريم. مجلة المناهل، المجلد ٣، العدد ١، سنة ٢٠٢٢.